الرسول فى القرآن

● **تمهيد :**

رسل اللّه بَشر وُلِدوا جميعاً من نساء جئن من ذُرِّية آدم ، اصطفاهم اللّه واختصهم برسالاته ، فهم ﴿ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ * لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٦ - ٢٨) .

وبين « أمر اللّه » والعمل فى خدمة رسالاته حمل المرسلون أثقالاً وتعرضوا لضغوط عالية ومواقف حرجة وقاسوا محناً وآلاماً وكانت حياتهم جهاداً خالصاً فى سبيل اللّه .

*

ومن المُسَلّمات فى واقع الحياة أن « الناس معادن » تختلف خواصهم كاختلاف خواص المعادن والخامات الطبيعية فمنها المتميز النادر كالذهب ومنها الرخيص الوفير كالتراب ، ومنها الصلد الشديد كالحديد ومنها الطرى اللّعوب كالزئبق ، ومنها ... ومنها ...

ومن المُسَلّمات كذلك أن الناس مواهب يختلفون فى حظوظهم منها كاختلافهم فى الأشكال والألوان . فهذا له يد فنان بطبعه وذاك شاعر بالسليقة وثالث ذو عقليه رياضية .... وهكذا .

بعد ذلك يأتى شىء من التعليم والتهذيب - قَلَّ أو كَثُرَ - ليصقل تلك المواهب ويرتقى بها ، فتتثبت قدم كل ذى موهبة فيما حظى به .

وفى مجال الرسالة الإلٰهية لا نجد عجباً يخالف واقع الحياة أو طبيعة الأشياء، فالرسل هم أولاً وأخيراً بَشَرٌ من الناس إلّا أنهم صُنعوا على عين « الحق » فكانوا أهلاً لرسالات اللّه ، و ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ .

(الأنعام : ١٢٤)

*

obeikandl.com

وترينا دراسة أحوال المرسلين - وخاصة أصحاب الرسالات الكبرى : موسى وعيسى ومحمد - أن الأُمور لم تجر دائماً وفق مشيئتهم ، فلم يكن لهم « من الأمر شيء » لأن « الأمر كله للّه » . وما كانوا بين يديه - سبحانه - أكثر من عباد مخلصين .

ومن هنا كان الصراع العنيف وكانت المعارك الطاحنة فى داخل تلك النفوس البَشرية العالية قبل أن تكون فى خارجها .

ومن المؤكد أن رسل اللّه - فيما يتلقونه من وحى - ليسوا أكثر من « أجهزة استقبال » تامة الأمانة والدقة والكفاءة ، لا بد أن تبلغ نسبتها العددية ..١٪ .

وفيما عدا ذلك فهم مجتهدون قد يتعرَّضون لما يتعرَّض له البَشر من هفوات ومآخذ ، إلا أن كونهم أفضل البَشر جعل ما يمكن أن يؤخذ عليهم وفق ميزان « الحق » يندرج تحت الحكمة التى تعنى أن من حسنات الإبرار ما قد يُحسب سيئات للمقرَّبين ، باعتبار أن المقرَّبين أفضل من الأبرار ، وبالتالى كانت موازينهم أدق وحسابهم أصعب .

*

وإذا كنا نعهد فى سيرة العظماء من البَشر - رغم اختلاف مقاييس العظمة - كأن « القدر » يعدهم لما صار إليهم أمرهم ، فمن باب أولى أن تكون عناية القدر برسل اللّه ، قبل أن تأتيهم رسالات السماء .

لقد كان أول وحى إلى النبى أرميا ينبئه أنه فى رعاية اللّه قبل أن يُخلق :

« كانت كلمة الرب إلىَّ قائلاً : قبلما صوَّرتُكَ فى البطن عرفتُكْ ، وقبلما خرجتَ من الرحم قدستُكْ : جعلتك نبياً للشعوب » .

وكذلك كانت رعاية اللّه مع المسيح ، إذ أوحى إلى يوسف خطيب مريم أُمه أن يهرب به إلى مصر خوفاً من بطش هيرودس .

« إذا ملاك الرب ظهر ليوسف فى حلم قائلاً : قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك ، لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه . فقام وأخذ الصبى وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر » .

وكانت عين الله على رسوله محمد قبل أن يكون وبعد أن كان . فلقد حدث فى طفولته ما يرويه : « لقد رأيتُنى فى غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعرى وأخذ إزاره فجعله على رقبته يحمل عليه الحجارة ..

فإنى لأُقبل معهم كذلك وأُدبر ، إذ لكمنى لاكم .. ما أراه لكمة ..وجيعة ، ثم قال : شُدَّ عليك إزارك ، فأخذته وشددته علىّ .. ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتى وإزارى علىّ .. من بين أصحابى »[(١)] .

ولقد حدث فى صباه أن استرعى انتباهة عُرسٌ بمكة ، تجمَّع القوم فيه للَّهو واللَّعب ، فذهب إليه كما يذهب الصِبية للمشاهدة والسرور . لكنه لم يلبث أن غلبه النوم ، فانتحى خلف الدار ونام حتى أيقظته شمس الصباح .

* *

● قبل الرسالة :

تحقق خبرات الحياة صدق القول بأن « مَن شَبَّ على شىء ، شابَ عليه » وأن « الإنسان أسير العادة » وما إلى ذلك من الأمثال السائرة والقواعد السلوكية التى لم تعد فى حاجة إلى برهان بعد أن صار الواقع لها خير برهان .

ذلك أن الإنسان يسهل تشكيله وتهذيبه منذ طفولته إلى نحو العشرين عاماً، وتبدأ الصعوبة فى التغيير إلى الثلاثين عاماً ، وتكاد تبلغ المستحيلات عند الأربعين عاماً .

---

(١) تاريخ الطبرى : جـ ٢ - ص ٢٠١

فإذا كان رسل الله قد اختيروا رجالاً قاربوا الأربعين من أعمارهم أو تخطوها ، فإن هذا يعنى أنهم كانوا أصلاً مؤهلين بطبيعتهم البَشرية وما درجوا عليه من كريم الخِصال وتميز المواهب ، لكى يكونوا رسل الله إلى خلقه .

فحين جاء أول وحى لإبراهيم أبى الأنبياء « كان (عمره) خمساً وسبعين سنة » .

وحين بدأت رسالة موسى « كان موسى ابن ثمانين سنة » .

وحين بدأت رسالة المسيح « كان له نحو ثلاثين سنة » .

على أن هناك حالات خاصة من الأنبياء والمرسلين مثل أرميا الذى جاءه الوحى وهو ولد صغير :

« قلت : آه يا سيد الرب ، إنى لا أعرف أن أتكلم لأنى ولد . فقال الرب لى : لا تقل إنى ولد ، لأنى إلى كل من أرسلك إليه تذهب وتتكلم بكل ما آمرك به » .

وكذلك يحيى بن زكريا الذى قال عنه « الحق » : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الحُكْمَ صَبِيّاً ﴾ . (مريم : ١٢)

ومحمد رسول الله ليس « بدعاً من الرسل » فقد جاءه الوحى وهو فى الأربعين من عمره وقد عُرِفَت أخلاقه وتميزت سِماته لكل مَن خالطه وعرفه .

ولذلك نجد « الحق » يقول فى وصف الرسول مبكراً فى صدر سورة القلم التى تعتبر ثانى سورة نزلت من القرآن : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ (القلم : ٤) .

*

لقد كان خُلُق محمد هو أول البراهين على صدق ما جاء به ، ورصيده الهائل الذى أُعَدَّ بقدر الله لخدمة الرسالة .

فحين فاجئه الحق وهو فى غار حِراء ونزل عليه المَلك بأول سورة « اقرأ » ثم انصرف عنه ، رجع رسول الله إلى خديجة يرجف بها فؤاده ، حتى إذا دخل عليها قال : زَمِّلونى ، زَمِّلونى . فزَمَّلوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة :

« أى خديجة ، مالى ؟ لقد خشيتُ على نفسى » . ثم أخبرها الخبر ، فقالت خديجة : « أبْشِرْ ، فوالله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتصل الرَحِم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكَلّ ، وتُقرى الضيف ، وتُعين على نوائب الحق » .

لقد كانت أخلاق محمد - التى خبرتها خديجة عن كثب - وما اشتهر به بين الناس من جميل المحامد والسجايا ، هى حيثيات الحكم التى استندت إليها فى التأكيد على صدق ما جاءه ، وأنه « الحق » من الله .

ولقد حدَّث ابن عباس قال : « لما أنزل الله عز وجل ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ ﴾ [١] ، أتى النبى ﷺ - الصفا ، فصعد عليه ثم نادى : يا صباحاه .

فاجتمع الناس إليه بين رجل يجىء إليه وبين رجل يبعث رسوله .

فقال رسول الله - ﷺ - : « يا بنى عبد المطلب ، يا بنى فهر ، يا بنى لؤى .. أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادى تريد أن تُغير عليكم ، أكنتم مُصَدِّقِيّ » ؟

قالوا : نعم . ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : « إنى نذير لكم بَيْنَ يدى عذاب شديد » .

فقال أبو لهب (عمه) : تباً لك سائر اليوم . ألهذا جمعتنا ؟ [٢] .

بقى أن نلاحظ فى قول الحق : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [٣] . أن كلمة « على » للاستعلاء ، وأن الخُلق العظيم خاصية من خلقته الطبيعية وفطرة فُطِرَ عليها ، فدلَّ ذلك على أن الرسول فى هذا المجال كالسيد بالنسبة لمن ساد عليه .

*

واستمر خُلق الرسول يُستخدم كواحد من خير البراهين على صدق رسالته ، فكانت آيات القرآن تشير إلى ذلك بين الحين والحين حتى تُذكِّر مَن جَحد نبوَّته

---

(١) الشعراء : ٢١٤

(٢) تفسير الفخر الرازى ، وابن كثير .

(٣) القلم : ٤

من عشيرته وقومه بسابق عهدهم به صادقاً وأميناً ، فقد عرفوه عن قُرب معرفة الصاحب لصاحبه ، وخبروا رجاحة عقله وطيب معدنه . فالذى يأتيه إنما هو وحى السماء استقبلته نفس محمد الطاهرة وعقله الواعى :

﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْخُنَّسِ * الْجَوَارِ الْكُنَّسِ * وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ * وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ * إِنَّه لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِى قُوَّةٍ عِنْدَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ * وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ ﴾ (التكوير : ١٥ - ٢٢) .

وحين حاولوا مداهتنه وطلبوا منه قرآناً لا يُسَفِّه آلهتهم ولا يدعو إلى نبذ عبادة اللأت والعُزّى ولا يُحرِّم عليهم ما ترددوا فيه من خبائث ومنكرات كان قول « الحق » :

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِى ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ، إِنِّى أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ *

قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ ، فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُراً مِنْ قَبْلِه ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ *

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ (يونس : ١٥ - ١٧) .

ثم كانت هذه الدعوة للمكيين بتحرير الفكر وتحرى الحقيقة فى أمر صاحبهم ، وذلك بانبعاثهم مثنى ، أو فرداً فرداً ، ثم تفكرهم فى أمر محمد على ضوء سابق عهدهم به ، وحين يصدقون العزم ويتجردون عن الهوى ، سوف تصدق نتائج تفكيرهم .

وهذه الدعوة للتفكير علمية ولا شك ، فهى تأخذ فى اعتبارها « علم النفس » وخصائص النفس البَشرية التى قد تكابر فى الحق حين تُطرح القضية أمام ملأٍ من الناس ، لكن احتمالات رجوع تلك النفس إلى الحق يكون أكبر حين يخلو

الإنسان بنفسه أو يفكر مع صديق له فآنذاك يرشد كُلٌّ صاحبه ويستمع الواحد للآخر ولا حَرَج .

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ، مَا بِصَاحِبِكُمْ مِّنْ جِنَّةٍ ، إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُمْ بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ .

(سبأ : ٤٦)

نعم كان خُلُق محمد قبل الرسالة كافياً لإيمان القوم به ، لكنهم كذَّبوه جحوداً واستكباراً لأهواء شخصية ودوافع قَبلية ولم يكن تكذيبهم راجعاً لاختلاط أمره عليهم . وفى هذا يقول « الحق » :

﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِى يَقُولُونَ ، فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٣٣) .

⁕ ⁕

● بداية الطريق :

الرسالة الإلٰهية طريق غايته الوصول إلى اللّه ..

وهو طريق يهدى الذين أُرسِلَ إليهم ، كما سبق وقد هدى من قبلهم المرسلين .

يهدى الذين أرسِلَ إليهم بكتاب اللّه وسُنَّة رسوله ، بعد أن هدى المرسلين بالوحى الإلهى والتعاليم السماوية .

وفى قصة إبراهيم - الذى صار أبا الأنبياء - كان « ابن تسع وتسعين سنة حين ظهر له الرب وقال له :

« أنا اللّه القدير . **سر أمامى وكن كاملاً** . فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيراً جداً .

فسقط إبرام على وجهه وتكلم اللّه معه قائلاً :

أُقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهداً أبدياً لأكون إلٰهاً لك ولنسلك من بعدك »

إنه طريق إلى الله ، يسير فيه الإنسان .

ويحتاج المسافر فى كل طريق إلى مَن يأخذ بيده ويهديه الغاية ويعطيه الوسيلة ويحذره المصاعب والأهوال ، ويعرفه القواعد والأحكام . هكذا الطريق إلى الله .

ومَن أعلم بالطريق إليه - سبحانه - إلا هو ، فهو الذى يهدى إليه ، ولا هدى إلا به .

إذ يرسل ملائكته سَفرة حَفظة ، بكتبه المكرَّمة إلى رسله المصطفين الأخيار .

والطريق شاق وطويل ...

هكذا كان مع نوح وإبراهيم وموسى وإلياس ، ويحيى وعيسى ، وهكذا كان مع محمد .

*

• النبأ العظيم :

فجىء الوحى محمداً فى غار حراء ، فأوحى إليه ما أوحى وصاحبَ ذلك ما صاحبه من خوف ورهبة . ويقص محمد الخبر على خديجة ، فتخفف من روعه بادى الرأى استناداً إلى خبرتها الوثيقة . لكن الأمر لا يقف عند هذا الحد ، فما كان خبر السماء إلا ليؤخذ بكل الجد ويُستيقن منه بالبحوث والتجارب .

وهناك يحدث أمران هما بمقياس العصر تجارب معملية كتلك التى تجرى لدراسة ظاهرة من الظواهر الطبيعية .

الأول : انطلقت خديجة إلى ابن عمها ورقة بن نوفل وكان قد عرف خبر الوحى من الأسفار السابقة ، فلما أخبرته بما حدث لمحمد وما رآه وسمعه أطرق ملياً ثم قال : « قدوس قدوس .. والذى نفس ورقة بيده : لئن كنتِ صدقتنى يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى وإنه لنبى هذه الأُمة فقولى له فليثبت » .

الثانى : طلبت خديجة إلى محمد أن يخبرها بمجىء المَلَك متى رآه . فلما جاء المَلَك أجلست زوجها محمداً على فخذها الأيسر ثم على فخذها الأيمن ثم فى حجرها وفى كل مرة تسأله عنه فيخبرها أنه لا يزال يراه .

حتى إذا حسرت وألقت خمارها فإذا بمحمد لم يعد ير المَلَك .

لم يبق - إذن - شك فى أن هذا الذى يأتيه هو مَلَك طاهر ، كما لم تبق هناك أية فرصة للشك فى أن محمداً وخديجة كانا أكثر الناس حرصاً على التثبت من حقيقة هذا الأمر الجديد الذى لا عهد لهم ولأُمتهم به .

*

ولقد رأينا عند الحديث عن الوحى [١] كيف صار صموئيل نبياً فقد كان يخدم أمام الكاهن عالى ، وبعد أن اضطجع للنوم ، إذا به يسمع صوتاً يناديه فظنه عالى ، فذهب إليه فقال عالى : « لم أدع . ارجع واضطجع » ، ولما تكرر ذلك للمرة الثالثة « فهم عالى أن الرب يدعو الصبى فقال عالى لصموئيل : اذهب اضطجع ويكون إذا دعاك تقول : تكلم يا رب لأن عبدك سامع ...

فجاء الرب .. ودعا كالمرات الأولى .. فقال صموئيل : تكلم لأن عبدك سامع ..

وكبر صموئيل وكان الرب معه .. وعرف جميع إسرائيل .. أنه قد أؤتمن صموئيل نبياً للرب »

فهكذا صار صموئيل نبياً للرب فى ساعة من ساعات اللّيل وبكل بساطة وبلا جدل أو تمحيص .

ويعتبر صموئيل هذا من كبار أنبياء بنى إسرائيل وهو الذى اعتمد شاول كأول ملك يقوم فى إسرائيل هو الذى مسح داود نبياً « وحَلَّ روح الرب على داود من ذلك اليوم فصاعداً » .

*

(١) راجع كتاب المؤلف : الوحى والملائكة .

● فروض وتكاليف :

من الطبيعى أن يبدأ التعليم الإلٰهى بالرسول .. وهكذا كان فلقد فُرِضَ عليه القيام بالليل ، تعبداً للّه وتهذيباً ، بعد أن انقضى عهد الراحة والنوم متزملاً ومتدثراً ، وبدأ عهد جديد كله عمل وكفاح وصبر وجهاد .

وهو عمل فى دوائر متحدة المركز تماثل تلك الدوائر التى تنبعث على سطح الماء لبحيرة هادئة إذا ما أصابتها قذيفة .

وحين نبدأ بالرسول فى المركز نجد أقرب دائرة إليه أهل بيته ، ثم صحبه المخلصين ، ثم عشيرته الأقربين .

وهكذا نزلت أولى آيات سورة المزمل لتقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ (المزمل : ١ - ٤) .

هو فرض وتكليف ، إذا صرفنا النظر عن كونه شغلاً مبذولاً وطاقة مستنفدة، فلا شك أن النفس العالية لا بد وأن تستقبل ذلك التكليف بشىء من الخوف والرهبة ، حذراً من الضعف الذى ارتبط بالإنسان ، أو مخافة عدم الإتقان . لكنه - فى الحقيقة - تكليف غلّفته رحمة اللّه ، ذلك أن النفس البَشرية بطبيعتها تشعر بشىء من الراحة ويُهَوِّن عليها الصعب حين تجد لها فيه خياراً . وهكذا كان فرض قيام الليل ، إذ ترك الخيار فى مقداره فزال بذلك الحَرَج وخف التكليف .

ولكى يعلم الرسول حقيقة ما انفتح عليه من السماء كانت الآية التالية لما سبق ذكره من سورة المزمل تخبره بكل وضوح أنه يتعرض لضغط عال من السماء يجب أن يستعد له منذ تلك اللّحظة فهى تقول : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً ﴾ (المزمل : ٥) .

لقد كان نزول القرآن على الرسول عملية تصحبها الشدة ويلازمها الضغط الثقيل . وحين قال عبد اللّه بن عمرو : يا رسول اللّه ، هل تحس بالوحى ؟

أجابه الرسول بقوله : « **أسمع صلاصل ، ثم أسكت عند ذلك فما من مرة يُوحَى إلىّ إلا ظننتُ أن نفسى تُقبض** » .

وقال زيد بن ثابت : « أُنزل على رسول اللّه ﷺ وفخذه على فخذى ، **فكادت ترض فخذى** »

وأما من الناحية الموضوعية فإن القرآن حُجة على كل مَن بلغه وشاهدٌ له أو عليه يوم الدين ، فأمره جد ليس بالهزل ، وهو نبأ عظيم ، يلازمه من الأمور ما يلازم كل نبأ عظيم .

❋

ثم تأتى مرحلة جديدة وهى إعلان الرسالة فى الدائرة التالية ، نذيراً وبشيراً لقوم يسمعون مع زيادة فى التعليم لما يجب أن يكون عليه حال الرسول . فقد نزلت سورة المدثر لتقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ (المدثر : ١ - ٧) .

لقد بدأ الصراع ولا محيص ، ذلك أن العرب حين نزل فيهم القرآن كانوا أمة أميّة ، عزلتها الصحراء وطبعت عليها من سماتها الشىء الكثير ، فآثرت الحفاظ على تراث الأقدمين بكل ما فيه من مساوىء ومثالب ، وهى مستعدة للقتال ضد كل تطور أو دعوة لنبذ ذلك القديم ، حتى ولو كانت هذه الدعوة من السماء .

❋ ❋

● محنة روحية :

نزل الوحى بالقرآن وبدأت نواة الإسلام فى بيت محمد فكان السابقون إليه زوجه خديجة ، وابن عمه وربيبه الصبى علىّ بن أبى طالب ، ومولاه زيد بن حارثة . ثم كان السابقون بعد بيته يتقدمهم « صاحبه وصديقه الحميم أبو بكر الذى آمن لفوره دون أن يكون له فى الإسلام كبوة ، والذى طفق يدعو إليه منذ

اللّحظة الأولى مَن وثق فيهم من القوم فتابعه على الإسلام عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبى وقاص والزبير بن العوّام . ثم أسلم بعد ذلك أبو عبيدة بن الجراح وغيره كثير من أهل مكة » .

وكان الواحد منهم إذا هُدِىَ إلى الإسلام ذهب إلى النبى سراً فأعلن إسلامه . وكان ذلك التخفى راجعاً إلى علم المسلمين الأوائل بما يضمره المجتمع القرشى من عداوة شديدة لكل مَن يفكر فى الخروج على آلهته المتوارثة ومعبوداته الوثنية . لكن أمر الوحى ونزول القرآن وإعلان نبوّة محمد كان خبراً يُذاع منذ اللّحظة الأولى ويكفي ما أعلنته خديجة لورقة بن نوفل وهي تستقصى منه الخبر الذي لم تعهده العرب منذ قرون عديدة .. وما كان هذا الخبر بالذى يمكن كتمانه فى مثل تلك البيئة التى اشتهرت بتناقل الأخبار وتقصى الروايات ، وكان عندها من الفراغ الزهنى والفكرى ما يجعلها تذيع كل ما تلتقطه الآذان صباح مساء .

وإذا بمفاجأة لم يتوقعها الرسول تحدث ..

لقد توقف الوحى ، إذ انقضت ليلة وليلتان وليالى وأيام ولا خبر من السماء.

وذاع هذا الأمر - كالمعتاد - وشمت الشامتون من الكفار وقالوا إن محمداً ودعه ربه ، وأشفق الصحب من المسلمين ولعل منهم مَن حدثته نفسه فقال للنبى: ما أرى ربك إلا قد قلاك .

وبين هذا وذاك عانى النبى فى تلك المحنة الروحية الشىء الكثير ، حتى ترانا لا نعجب حين نقرأ لكتّاب السيرة وهم يتحدثون عن فتور الوحى فيقولون إن النبى هانت عليه نفسه وتمنى لو ألقى بها من أعلى جبل حِراء أو أبى قبيس بعد أن ألفى نفسه وحيداً هكذا كالمعلّق بين السماء والأرض .

لقد سبق أن طلب موسى من الله الموت لنفسه حين ثقل عليه الأمر مع بنى إسرائيل : « فقال موسى للرب : لماذا أسأتَ إلى عبدك ، ولماذا لم أجد نعمة فى عينيك حتى إنك وضعت ثقل جميع هذا الشعب على ؟ ..

إن كنتَ تفعل بى هكذا فاقتلنى قتلاً .. فلا أرى بليّتى » .

(العدد ١١ : ١١ - ١٥)

وكذلك طلب إلياس (إيليا) الموت لنفسه بعد أن أرهقته مطاردة آخاب ملك إسرائيل الفاجر وزوجته إيزابل وهما يطلبان قتله ، فإذ ثقل عليه الأمر واشتد الكرب « سار فى البرية مسيرة يوم حتى أتى **وجلس تحت رتمة وطلب الموت لنفسه وقال : قد كفى الآن يا رب . خذ نفسى** » (الملوك الأول ١٩ : ٤)

لكن ﴿ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف : ٥٦) .

فما لبث الوحى أن عاد للنزول بعد أن فتر حينًا تعلّم فيه النبى الصبر والتعلق كلية بالله الذى وحده « له الخلق والأمر » .

وكانت سورة الضحى خير عزاء للرسول وبُشرى وتثبيت :

﴿ وَالضُّحَىٰ * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ * وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَىٰ * وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ (الضحى : ١ - ٥).

*

واستمر الوحى نزولاً وآيات الله تترى ، حتى إذا انقضت عدة سنوات تعرَّض النبى لتجربة أُخرى تناظر تلك المحنة الروحية التى فجئته فى صدر الدعوة .

فإذ كانت الحرب على أشدها بين القرشيين وأشياعهم من جانب ، ومحمد والمسلمين من جانب آخر ، « بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم : سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء .

فقال (أحبار اليهود) : سلوه عن ثلاث .. فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإلا فرجل متقول فتروا فيه رأيكم : سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول .. وعن رجل طوّاف بلغ مشارق الأرض ومغاربها .. وسلوه عن الروح ما هو ؟ ..

فأقبل النضر وعقبة حتى قدما على قريش . فقالا : يا معشر قريش ، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد وقد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أُمور ،

فأخبروهم بها فجاءوا رسول الله - ﷺ - فقالوا : يا محمد أخبرنا ، فسألوه عما أمروهم به فقال لهم رسول الله - ﷺ - : « أُخبركم غداً عما سألتم عنه » ولم يستثن ، فانصرفوا عنه .

ومكث رسول الله - ﷺ - خمس عشرة ليلة لا يُحدث الله له فى ذلك وحياً ولا يأتيه جبرائيل عليه السلام ، حتى أرجف أهل مكة وقالوا : وعدنا محمد غداً ، واليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء عما سألنا عنه ، وحتى أحزن رسول الله - ﷺ - مكث الوحى عنه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .

ثم جاءه جبرائيل عليه السلام من الله عز وجل بسورة أصحاب الكهف وفيها معاتبته إياه على حزنه عليهم وخبر ما سألوه عنه » (١)

لم يقل الرسول لمن سألوه : « أخبركم غداً عما سألتم عنه إلا أن يشاء الله » فكان ذلك الحَرَج الشديد والأذى والمعاناة .

إنه نبى ورسول من عند الله ، كل كلمة بل كل حرف وتصرف بحساب وإلا فهناك حساب يتناسب وأقدار الرجال .

ثم نزل التعليم الإلٰهى للرسول بأن نزول الملائكة بالوحى عبر الزمان لكل الأنبياء والمرسلين لا يتم إلا بأمر الله الذى له وحده المشيئة المطلقة « وهو الحكيم الخبير » .

﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ، لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ، وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً ﴾ (مريم : ٦٤) .

وتطالعنا الآن نتيجة حتمية أكدتها أحداث الرسالة فى الإسلام - سبق أن أشرنا إليها - وهى أن رسل الله تحت ضغط الوحى ليسوا أكثر من « أجهزة استقبال » تامة الدقة والأمانة بالغة الحساسية ، فحين تأتيها الإشارة من السماء

---

(١) تفسير ابن كثير : سورة الكهف .

تلتقطها وتذيعها ، أما حين يترقف الإرسال فلا استقبال ولا إذاعة ، بصرف النظر عما يصيب رسل اللّٰه آنذاك من حرج وأذى ، وضيق ، إذ أن الأمر كله للّٰه وهم خدم فى بيت رسالته .

* * *

• الرسول بين يدى اللّٰه :

تقرير واقع : نزلت سورة الضحى لتطمئن الرسول وتشف صدور المؤمنين وتُذهب غيظ قلوب الكافرين ثم تُذكِّر الرسول بواقع الأمر فتقول له :

﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَىٰ * وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ * وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى : ٦ - ٨) .

هذه حقائق ثلاث كانت فى حياة الرسول ، يهمنا منها ما يتصل بالدين . فمن المعلوم أنه - صلوات اللّٰه عليه - نشأ فى أمة أُميِّة وفى مجتمع وثنى ، عزفت نفسه المطهَّرة عن المشاركة فى سفاهات قومه على أية صورة من الصور فلقد أيقن بفطرته السوية أنهم فى معتقداتهم الدينية على باطل لا مراء فيه ، ولكن أين الحق إذن ؟

إن هذا ما تطلعت نفسه دائماً لإدراكه وكانت وسيلته الوحيدة هى التباعد عما فيه قومه ، ثم التفكير وحيداً فى هذا الكون العظيم وظواهره ونواميسه . ولقد طاب له التأمل والتفكير وهو يرعى الغنم فى الصحراء ثم وجد فى التحنث أو التحنف خير دواء مستطاع لما يختلج فى صدره ، فكان يذهب إلى غار بجبل حِراء فيقضى فيه ما شاء اللّٰه من ليالى وأيام يفكر فى الكون وخالقه ، ثم يعود إلى خديجة بعد أن يكون قد نفد ما معه من قليل الزاد .

ولم يلبث أن تعهدته العناية الإلهية بالرؤيا الصادقة - التى تعتبر ارهاصاً للوحى فى حياة الأنبياء - فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت صادقة كنور الصباح . وأخيراً جاءه الحق وحياً من اللّٰه ، قرآناً .

لقد هداه اللّٰه فعرَّفه الحق وسُبُله ، فالهدى يعنى التعريف بالطريق كما فى

قوله تعالى ، فى سورة البلد . ١ : ﴿ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ أى عرّفنا الإنسان طريقى الخير والشر ، فيسلك الأول ، ويجتنب الثانى .

وكذلك قوله فى سورة الصافات ٢٣ : ﴿ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴾ أى أرشدوهم إلى طريق جهنم . والضلال عكس الهدى بمعنى الجهل بالشىء كما يقال فى اللُّغة : ضللتُ الدار - أى لم أعرف موضعها .

والضلال يعنى النسيان كذلك وعدم الإلمام بالشىء أو جزئياته أو إهماله كما فى قوله تعالى فى آية التداين من سورة البقرة ٢٨٢ : ﴿ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ ﴾ . فضلال الشاهدة هنا يعنى نسيانها حقيقة الشهادة .

وحين قال فرعون لموسى ، وهو يمن عليه بما كان من سابق أمره حين تربى فى بيت الملك ، ثم قتل المصرى وهرب إلى مَدْيَن - ما تذكره سورة الشعراء ١٨ - ٢١ : ﴿ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ *

قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْماً وَجَعَلَنِى مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ .

فقول موسى : ﴿ وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴾ أى الجاهلين بالحقائق ، كما تعنى كذلك حال موسى قبل النبوّة والرسالة .

وعلى ضوء هذا نفهم معنى قوله تعالى لنبيه : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ ﴾ [1] .

فقول الله حق ، ﴿ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِى مِنَ الْحَقِّ ﴾ [2] .

---

(١) الضحى : ٧ (٢) الأحزاب : ٥٣

على أن لهذا القول دلالة لا تخفى على كل مَن ﴿ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [١] فهذا القول يعنى أن محمداً الذى اشتهر بالأمانة – قبل الرسالة – بين الناس ، لهو أشد أمانة فيما يتنزل إليه من ربه من قرآن .

*

إن القرآن هو الذكر الحكيم ، وما أنزله الله ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴾ [٢] ولقد صرفه – سبحانه – بين الناس لِيَذَّكَّروا ، ﴿ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٣] ولهذا نجد القرآن يعيد التذكرة بعد سنوات من نزول سورة الضحى فيقول :

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِّنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُوراً نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى : ٥٢) .

*

بل إن القرآن ليقرر حقيقة نبؤها عظيم وأمرها جد ، فيقول للرسول على لسان « الحق » إنه لا يملك من أمر القرآن بعد نزوله شيئاً ، كما إنه لم يكن يملك من أمره شيئاً قبل التنزيل . فالله قادر أن يذهب بما أوحى ، وآنذاك يجد الرسول نفسه وقد تقطعت به كل الأسباب :

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً * إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً ﴾ (الإسراء : ٨٦ - ٨٧) .

ولا عجب .. فالأمر كله لله ، ليس الأمر فقط ، بل له سبحانه « الخلق والأمر » فهو الذى يملك السمع والأبصار و .. يدبر الأمر » .

وفى تذكرة للإنسان ، يقول القرآن : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم ، مَّنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ، انظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴾ (الأنعام : ٤٦) .

---

(١) سورة ق : ٣٧ (٢) طه : ٣ (٣) الذاريات : ٥٥

openkamal.com

فاللّه وحده له المشيئة المطلقة فى كل شىء :

﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰ * إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ * وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴾ (الأعلى : ٦ - ٨) .

ولقد كان الأنبياء جميعاً واعين لتلك الحقيقة الهامة ، وهى أن الإيمان الذى ملأ قلوبهم ، هو فى قبضة « الحق » . وعلى المؤمن الحقيقى أن يسأل اللّه دائماً الثبات على اليقين والترقى فى مراتب الإيمان . ولهذا قال إبراهيم أبو الأنبياء فى محاوراته مع قومه : ﴿ أَتُحَاجُّونِّى فِى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ ، وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّى شَيْئاً ، وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ *

وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ، فَأَىُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ *

الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴾ (الأنعام : ٨٠ - ٨٢) .

وعلى شاكلة إبراهيم - ومَن بعده - كان موقف شعيب مع قومه ، إذ : ﴿ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ،

قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ * قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ، وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ، وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْماً ، عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ، رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ .

(الأعراف : ٨٨ - ٨٩)

ليس الإيمان فقط - وهو الشىء غير المادى - الذى يُرَد حفظه إلى اللّه ، بل إن كتاب اللّه المسطور يُرَد حفظه إلى اللّه كذلك ، فإن شاء حَفَظَه وإن شاء استحفظ عليه البَشر . وفى هذه الحالة الأخيرة يصبح معرَّضاً - ولا شك - للتغير والتبديل ، لأن الزيغ من طبع الإنسان .

Obeikandi.com

وما حدث لتوراة موسى خير دليل على ذلك .

فحين ذهب موسى لميقات ربه يتلقى التوراة بعد أن استخلف أخاه هارون فى قيادة بنى إسرائيل أعطى اللّه « موسى عند فراغه من الكلام معه فى جبل سيناء لوحى الشهادة ، لوحى حجر مكتوبين بأصبع اللّه » .

لكن الشعب الإسرائيلى انتهز فرصة غياب موسى فخرج على قيادة هارون وضع له عجلاً مسبوكاً من الذهب غنمه من المصريين قبل رحيله وقام يعبده ويلعب حوله .

« فقال الرب لموسى : اذهب انزل لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر .. صنعوا لهم عجلاً مسبوكاً وسجدوا له .

فحمى غضب موسى وطرح اللّوحين من يديه وكسرهما فى أسفل الجبل » .

لقد كسر موسى بنفسه التوراة التى كتبتها يد القُدرة ولم يجف مدداها بعد ..

ولذلك « قال الرب لموسى : انحت لك لوحين من حجر مثل الأولين فأكتب أنا على اللّوحين الكلمات التى كانت على اللّوحين الأولين اللّذين كسرتهما .. واصعد فى الصباح إلى جبل سيناء »

ولكن الذى حدث بعد ذلك أن موسى هو الذى كتب التوراة ، فقد :

« قال الرب لموسى : اكتب لنفسك هذه الكلمات ، فكتب على اللّوحين كلمات العهد ، الكلمات العشر » .

ومن المعلوم أن التوراة تعرضت بعد ذلك للحرق والضياع ، وقد أعاد عرزاً كتابتها بعد أكثر من .. ٧ عام من نزولها على موسى .

*

هذا .. ولما كان « النبى » هو الذى يُنبىء عن اللّه ، أى يُخبر الناس بما يريد « الحق » سبحانه – أن يُظهره إلى الخلق ، فإن « النبى » لا يستطيع أن يُحَدِّث بشىء من الغيب إلا ما شاء اللّه .

وكانت « الساعة » من الأمور التى بقى علمها عند اللّه فخفيت عن جميع الأنبياء والمرسلين .

ولقد كان كفار قريش ينكرون القيامة والساعة وكأنهم أرادوا تعجيز الرسول فسألوه عنها سؤال المُنكِر المُصِّر على جحوده فجاءه الحق يقول :

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى ، لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ، ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ١٨٧) .

ومن قبل قرر المسيح لتلاميذه أن القيامة والساعة شيء اختص اللّه بعلمه ، فأخفاه عن جميع خلقه بما فيهم الملائكة والمسيح ، فقد قال لهم :

« أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ، ولا الابن ، إلا الآب » .

ومن الطبيعى أنه ما دام أمر الساعة قد خَفِىَ عن كبار الأنبياء ، فإن مصائر البَشر الأبدية التى تتقرر فى الساعة ، لا تتقرر ألا بأمر اللّه ﴿ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ (سبأ : ٢٣) .

وحتى أنبياء اللّه ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٨) .

بل إن ملائكة اللّه لا يشفعون إلا من بعد إذنه :

﴿ وَكَمْ مِّنْ مَّلَكٍ فِى السَّمٰوَاتِ لَا تُغْنِى شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ (النجم : ٢٦) ، فالأمر متوقف آنذاك على رضوان اللّه وحده لا شريك له .

*

ويقطع تاريخ الأنبياء بأن النبوّة لا تعنى مداومة النبى الاطلاع على الغيب ، فكلهم لم يعلم منه شيئاً إلا ما أظهره اللّه عليه وفق قدره المحكم والمحتوم .

فقد حدث لإبراهيم حين تغرَّب فى أرض جرار أن قال عن سارة زوجته إنها أُخته ، فلما أنكر زوجيتها له « أرسل أبيمالك ملك جرار واخذ سارة » ليعاشرها معاشرة الأزواج « فجاء اللّه إلى أبيمالك فى حلم اللّيل وقال له : ها أنت ميت من أجل المرأة التى أخذتها ، فإنها متزوجة ببعل ..

فبكَّر أبيمالك فى الغد ودعا جميع عبيده .. ثم دعا أبيمالك إبراهيم وقال له : ماذا فعلتَ بنا .. حتى جلبتَ علىَّ وعلى مملكتى خطية عظيمة .

فقال إبراهيم : إنى قلت ليس فى هذا الموضع خوف اللّه البتة فيقتلوننى لأجل امرأتى » (تكوين . ٢) فمن الواضح أن إبراهيم كان لا يعلم ما ينتظره فى الغد ولذلك أنكر زوجيته لسارة .

وحدث بعد ذهاب موسى وأخيه هارون إلى فرعون ليُخرِجا بنى إسرائيل من مصر أن فرعون زاد من اضطهاده للإسرائيليين « فرأى مدبرو بنى إسرائيل أنفسهم فى بلية ..

وصادفوا موسى وهارون واقفين للقائهم حين خرجوا من لدن فرعون فقالوا لهما:

ينظر الرب إليكما ويقضى لأنكما أنتنتما رائحتنا فى عينى فرعون وفى عيون عبيده حتى تعطيا سيفاً فى أيديهم ليقتلونا .

فرجع موسى إلى الرب وقال : يا سيد ، لماذا أسأتَ إلى هذا الشعب ؟ لماذا أرسلتنى ؟

فإنه منذ دخلتُ إلى فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هذا الشعب وأنت لم تُخَلِّص شعبك » (خروج ٥ : ١٩ - ٢٣) .

فمن الواضح أن موسى كان يجهل الأحداث الجِسام التى تنتظره وبنى إسرائيل ، ومنها تخليصهم من قبضة فرعون فى أيام معلومات .

وحين ضاقت السُبل بإيليا من مطاردة آخاب وإيزابل فإنه « جلس تحت رتمة وطلب الموت لنفسه وقال : قد كفى الآن يا رب خذ نفسى .

وإذا بملاك قد مسَّه وقال : قم وكُلْ .. ثم عاد ملاك الرب ثانية فمسَّه وقال : قم وكُلْ لأن المسافة كبيرة عليك . فقام وأكل وشرب وسار بقوة تلك الأكلة أربعين نهاراً وأربعين ليلة إلى جبل اللّه حوريب ودخل هناك المغارة وبات فيها » .

(الملوك الأول ١٩ : ٤ - ٨)

فمن الواضح أيضاً أن نفس إيليا ما كانت تدرى ﴿ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً ﴾ [(١)] **وما كانت تدرى** ﴿ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ﴾ [(٢)] .

*

ولقد حدث حين شعر المسيح بمؤامرات اليهود تُحاك ضده وأنهم يريدون قتله ، أن قال لهم فى الهيكل : « تعليمى ليس لى بل للذى أرسلنى .. لماذا تطلبون أن تقتلونى .. وكان يسوع يتردد بعد هذا فى الجليل ، لأنه لم يرد أن يتردد فى اليهودية لأن اليهود كانوا يطلبون أن يقتلوه »

واستمرت هذه سياسة المسيح تجاه اليهود فى تجنب الأماكن التى يمكنهم اصطياده فيها :

« فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه . فلم يكن يسوع أيضاً يمشى بين اليهود علانية بل مضى من هناك إلى الكورة القريبة من البرية إلى مدينة يقال لها أفرايم ومكث هناك مع تلاميذه » (يوحنا ١١ : ٥٣ - ٥٤) .

فمن الواضح أن المسيح كان يجهل تماماً ما يخبئه له القَدَر فى صراعه مع اليهود ، ولذلك اتخذ من الاحتياطات ما ارتآه معيناً على إفشال مخططاتهم ضده .

لأنه لو كان يعلم أنهم سيصطادونه فى يوم معين لما كان هناك فائدة من تلك الاحتياطات ، ولو كان يعلم أنهم لن يصطادوه أبداً فلم يكن لها من داع أيضاً . وإنما تتخذ الاحتياطات بسبب الجهل بالغيب .

* *

(١ ، ٢) لقمان : ٣٤

لقد درج كثير من الناس على اعتبار الأنبياء وكلاء عن اللّه فى كل ما يتصل بالغيب من خير وشر وما ينتظر الناس من مصائر وأقدار . ولقد حسم القرآن الكريم هذه القضية حسماً ، فقال فيها الحق الواضح الذى يمنعها أن تكون وسيلة للتسلية والتعجيز من عتاة الكافرين ، أو مدعاة للأحاجى والألغاز بين ضعاف المؤمنين ، وذلك فى آياته البينات :

﴿ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِى خَزَائِنُ اللَّه وَلَا أَعْلَمُ الغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ، إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ، قُلْ هَلْ يَسْتَوِى الأَعْمَىٰ وَالبَصِيرُ ، أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الأنعام : ٥٠) .

﴿ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ ، إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأعراف : ١٨٨) .

*

وإذا كان الرسول قد بعثه اللّه ليهدى الناس ويأخذ بأيديهم بعيداً عن مهاوى الضلال ، فما هو إلا مُعَلِّم ومُبَلِّغ وداع إلى اللّه بالحكمة والموعظة الحسنة . أما استجابة الناس إلى الهدى فليست من مسئولياته ، بل إنه لو أراد إكراههم على ما فيه منفعتهم ما استطاع إلى ذلك سبيلاً :

﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَّسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ ﴾ (الغاشية : ٢١ - ٢٢).

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ﴾ (البقرة : ٢٧٢) .

﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (القصص : ٥٦) .

*

وخَلاصة القول فى تقرير واقع « الرسول بين يدى اللّه » هو ما يقرره « الحق » فى قوله المحكم » :

﴿ لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (آل عمران : ١٢٨) .

* *

• التعاليم الأساسية :

استفتح القرآن – فى سورة « اقرأ » – باسم الإله الذى ﴿ خَلَقَ الإِنْسَانَ ﴾ فهو الإله ﴿ الأَكْرَمُ * الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

(العلق : ٣ – ٥)

ثم توالت آيات اللّه ، وعلى هديها قام الرسول يدعو إلى ربه على بصيرة ، وفى مواجهته قام المشركون من قريش والذين كفروا به من اليهود ، يحاربونه ومَن تبِعَه بكل ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً .

وفى محاوراتهم معه قال المشركون : « انسب لنا ربك » وجاءه أناس من اليهود يقولون : « صف لنا ربك ، فإن اللّه أنزل نعته فى التوراة »

فأنزل اللّه – تعالى – سورة « الاخلاص » وهى نسبة خاصة للّه ؛ تقول :

﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ .

ولقد عَلَّم الرسول أصحابه أنها « تعدل ثلث القرآن » .

كان طبيعياً – إذن – أن تكون سورة « الإخلاص » من أوائل السور التى نزلت فى صدر القرآن ، إذ هى تضع الأساس الذى يقوم عليه الإسلام ، فما اتفق معها يتفق والعقيدة الإسلامية ، وما اختلفت معها استحال التوفيق بينه وبين أساسيات الإسلام ، مهما اجتمع لذلك من فلاسفة العصر وقادة الفكر وشيوخ الأديان .

وكان منطقياً أن يكون أساس العقيدة واضحاً كل الوضوح بسيطاً كل البساطة ، يفهمه كل ذى عقل سواء مَن أُوتِىَ حظاً من علم أو كان من الجهلة والأميين . فمن غير المعقول أن يكون أساس الدين – الذى يتوقف عليه المصير

الأبدى للإنسان - قائماً على قصص وأقاويل تعانى فى سبيل وعيها العقول والأفهام .

وكان عدلاً ورحمة أن يدخل الإنسان - كل الإنسان - دائرة الغفران والقبول طالما سلم أساس عقيدته فقام على التوحيد الخالص ، المبرأ عن كل شبهة وشرك، فكل ما وراء ذلك يمكن أن يهون لأن رحمة اللّه أوسع ، وأقرب للإنسان من حبل الوريد .

لذلك نجد « الحق » يقول :

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْماً عَظِيماً ﴾ (النساء : ٤٨) .

﴿ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (الحج : ٣١) .

* * *

obeikandl.com